الشكل الأيديولوجي لفلسفة برغسون

بوحناش نورة
جامعة منتوري قسنطينة

مقدمة:

لا يحيل موضوع الفلسفة البرغسونية المشكل من الزوج المتناغم الديمومة والحدس إلى أي إطار للتنظير السياسي، والدليل على ذلك أن فلسفة برغسون خالية تماما من قسم يولي السياسة إهتماماً إذا اخضعت نفسها لنسقية تصورية حملتها بعيدا صوب الأفلوطينية فقد إلتزمت بنقد العلم وبناء تفسير ميتافيزيقي للأنا في العالم بعيدا عن كل تمظهر للمادة أو المصلحة وهو ما يبرهن خلوها من تحصيل تصور لنظرية سياسية.

ولقد ظهر برغسون بمظهر يبعده تماما عن الصراعات الايديولوجية التي امتلأت بها الساحة الإجتماعية والسياسية في أروبا القرن العشرين عبر المحاضرات الفلسفية التي نحت صوب الرومانسية وحملته إلى ساحة الأدب وزاد من التأكيد على هذا الحال تأسفه الكبير على موت زميله ومواطنه جون جوريس (الفيلسوف الإشتراكي) بسبب اندفاعه نحو نصرة الايديولوجيا.

وعلى الرغم من هذا التأكيد والتدليل فإن البرغسونية تقدم قراءة أيديولوجية عندما تتبعت كتاب منبعا الأخلاق والدين التشاكل العضوي والزمني للمسيحية الكاثوليكية من جهة واليهودية من جهة أخرى، وبشرت بخلاص الغرب من أزمة الآلية المعمرة وباحتضان فكرة الروحانية عبر الزمن المشترك بين العهد القديم والعهد الجديد وهو المسيح بوصفه مخلصا إسرائيليا. بهذا تكون الإشكالية الأخلاقية المُطَوَّرة في كتاب منبعا الأخلاق والدين إحالة نحو وعي سياسي كامن في الدعوة إلى إحتضان الغرب للفكرة الإسرائيلية.

1- وصية الفيلسوف:

كان اليوم هو 04 جانفي وكانت السنة هي 1941، إنه زمان الحرب العالمية الثانية، فرنسا منهزمة أمام الجيوش الألمانية، والفيلسوف يحتضر على فراش الموت. كان أهل الفيلسوف هنري برغسون قد جلبوا إليه قسا كاثوليكيا عله وهو في ساعاته الأخيرة يعترف بالمسيحية دينا ويعمد بالتالي على الطريقة الكاثوليكية، غير أن عملية الاعتراف لم تكن، وعملية التعميد لم تحدث.

لماذا رفض فيلسوف الديمومة أن يموت وهو مسيحيا مخلصا للكاثوليكية؟ يبدو السؤال هنا ضروريا فخلاصة فلسفة الديمومة هي التنظير للمسيحية الكاثوليكية كمرجعية روحية لوحدة الحضارة الغربية والمسيح – وهو نبي من أنبياء بني إسرائيل – من ثم سيستمر مخلصا للغرب من مأزق الآلية التي انتهت إليها الحياة الغربية والتي أوقعتها أيضا النزعات الفلسفية المادية المدعمة من طرف العلم الوضعي.

رفض هنري لويس برغسون التعميد، هذا ما حملته وصيته التي بعثت بها زوجته يوم 09 سبتمبر 1941 إلى الفيلسوف إمانويل مونيني وهي الوصية التي تضمنت بكل صراحة أسباب هذا الرفض والإعراض وقد صرحت الوصية بما يلي: "لقد قادتني كل أفكاري أكثر فأكثر اتجاه الكاثوليكية حيث شاهدت انحدارها – الكاثوليكية – التام من اليهودية لقد عزمت الاعتراف بالكاثوليكية لولا أنني رأيت ومنذ سنوات تحضير موجة عارمة ضد السامية والتي أخشى أنها ستعم العالم لقد أردت أن أمكث معهم – اليهود – والذين سيغدون غدا ضحايا"[1].

هذه الوصية تؤكد ما يلي:

أ) وفاء الفيلسوف لبني عقيدته وهذا بسبب وضع سياسي كان يمر به يهود أوروبا أثناء الاجتياح النازي لها، والحق أن هذا الوفاء لم يكن بسبب هذه الحالة الظرفية الراهنة بل لأن هنري برغسون كان يهوديا مخلصا ليهوديته وهو يعبر عن تجربة الديمومة الأشد عمقا بتجربة المسيح بوصفه نبيا من أنبياء بني إسرائيل. ذلك أن فلسفة الديمومة هي خلاصة تجربة دينية أولا لتنتقل إلى تجربة فلسفية وليس العكس ومهما دلل الفيلسوف على هذا الترجيح الثاني، وكتاب منبعا الأخلاق والدين برهن على أن صدق تجربة الديمومة لن يجد لها تجل حقيقي سوى بربط المسيحية باليهودية وهذا ليس اعترافا بالمسيحية إنما هو تصريح للغرب على احتضان اليهودية للمسيحية.

ب) أصر الفيلسوف على البقاء على يهوديته، مؤازراً لبني عقيدته لأنه أدرك ميلاد الكاثوليكية من اليهودية وهما يشكلان وحدة واحدة وحدة التجربة الدينية ووحدة التاريخ ووحدة المستقبل لأن اليهودية لا تناقض الكاثوليكية والكاثوليكية تكمل اليهودية ما دامت تجربة المسيح بوصفه أرقى صورة للكمال الروحاني للجنس البشري وهو أيضا نبي من أنبياء بني إسرائيل هي تجربة الخلاص البشري الذي سيقود نحو روحانية معدلة للمادية التي تحاصر الحضارة الغربية أنه الحل اليهودي لأزمة الآلية التي تحيط بالغرب وحضارته. في النهاية فوصية الفيلسوف أبلغ اعتراف على الدعوة التي برهن عليها في كتاب منبعا الأخلاق والدين وحدة اليهودية والمسيحية والخلاص هو دائما من جهة أنبياء بني إسرائيل.

2- تبعية الأخلاق للدين:

يعد كتاب منبعا الأخلاق والدين بيانا للصلة بين الأخلاق والدين بل وتبعيتها له، لأن النداءات التي يوجهها الفرد المتميز هي حقيقة مشتركة بينهما، فهما يشتركان في المصدر والغاية. وقد نستدل على الربط الوثيق بين الدين وغاية الأخلاق في اشتراكهما في رسول القيم. ففي الموقعين ننجذب نحو سيرة حية هي سيرة

المسيح، وهي التي تمد الإنسانية بمثال أعلى هو نفسه عقيدة المحبة المسيحية.

لذلك فإنه من الصعب التمييز بين حدود الأخلاق وحدود الدين اللهم ما كان من تجلي الإله في الدين صراحة كقدرة للحب وغيابه في الأخلاق ولم يكن هذا الغياب غيابا نهائيا وإنما هو مواراة بسبب الفصل بين الدين والأخلاق في الفلسفة الغربية وهو من مستلزماتها العلمية غير أنه سيعقد علاقة منصهرة بين مصدر الأخلاق والدين ليكون مصدرهما واحد والمسيح هو رسول القيم الذي يستقبل القيم من مصدر واحد.

إن المصدر الحقيقي للدين الحركي وللأخلاق المفتوحة هو الوثبة المبدعة للحياة، لذلك فهو "فوق عقلي" وهو دين كبار المتصوفة والأنبياء يعتلي قمة هرمهم المسيح هؤلاء الذين تجتاحهم الحياة الصاعدة، وهم هنا يتطابقون مع المدد الإلهي، ويقدمون صورة للفردية تتجاوز حدود الطبيعة وتأتي بسيرة عمل، وليس بتعاليم نظرية وقد بدت هذه العلاقة بين الديمومة والتصوف مبكرة في مفهوم الفعل الخلاق[2].

ويبدو أن الانجذاب نحو الفردية - المسيح نبي من أنبياء بني إسرائيل - هو حل لمأزق الحضارة المعاصرة وتتمثل في التعارض بين المادية والروحانية، السياسية والأخلاق إلخ. وستستعيد الإنسانية حين ذلك لحقيقة الفردية الصوفية ذاتها، ومن ثم ستنصهر هذه التناقضات المصطنعة لأن الحل التصوفي هو دعوة إلى العودة نحو البساطة والرقي المستمر نحو المحبة. وهنا يعلمنا برغسون بأن حل الأزمة الروحانية المعاصرة يكمن في الرجوع إلى دين التوحيد دين أنبياء بني إسرائيل، وهو الدين الذي يتجاوز التعارض بين الشعوب، مؤلفا لوحدة روحانية تنصهر فيها الشعوب المتعارضة وهي النتيجة التي توحي بها قراءة متأنية لكتاب منبعا الأخلاق والدين.

ونعود للقول أن برغسون وجد في الديانة المسيحية التحقق الكامل للوثبة المبدعة والتحلي الأكمل للتجربة الباطنية. فليس التصوف هذا الدين أو ذاك، ويبدو أنه تاريخيا تحقق بصورة كاملة داخل المسيحية[3] وهكذا تلتقي فكرة التصوف بالمسيحية، فقد عبر المسيح في الإطار اليهودي بواسطة تجربة فوق عقلية، مما يؤدي إلى استمرار العلاقة بين اليهودية والمسيحية[4].

3- الانغلاق وتحالف الآلة والمصلحة:

انتهت الفلسفة البرغسونية إلى ابستيمولوجيا معدلة للتطرف المادي الآلي الذي ساد الفلسفات الوضعية، وكذا مقوضة لعنت النسق المنطقي للعلم الوضعي، وقد شكل هذا الزوج المنسجم إطار المعقول في المعرفة لا يرضى إلا بالمعادلة التي تقول الإنسان = جزئي من المادة.

ولقد واصلت البرغسونية ومنذ الأطروحات الأولى في خلخلة البنية الفلسفية لهذا الزوج وذلك بإنشاء مفهوم موازي لمعقولية العلم والفلسفة ثم البرهنة على حضور هذا المفهوم الجديد في قلب التجربة الفلسفية بمعقولية ترجع معطى الروحانية. ولقد جنح البديل البرغسوني نحو الرومانسية غير أنه تعبير عن معقولية تجد لها قوة ليس في تفنيد دعاوي العلم وإنما تجد الشرعية في ميدان العلوم الأخلاقية حيث الدعوة إلى المركزية الإنسانية الروحانية، ودرء كل بداية مادية لتصور الإنسان من ثم كذات واعية وأخلاقية.

إن مثل هذه الدعوة تجد لها المشروعية الكافية، بما أنها حضرت في قلب تصاعد التفسير الآلي، وقد ازدادت صلابة هذه الدعوة بنزوح الآلة إلى السياسة وتحالف التكنولوجيا الحربية مع العلم ومما زاد من اتساع آفة الآلية هو أن هذا التحالف لم يعمل على خدمة المسألة المركزية لحضارة القرن العشرين، وهي المسألة الإنسانية. وكان هذا التحالف زيادة في تصاعد سلطة الآلة وزيادة في خدمة المصالح السياسية الضيقة. ويعد الترجيح مبررا، ما دام الفيلسوف قد عايش ترجبتين مريرتين لحربين عالميتين. شهد فيهما كيف كان العلم يخدم السياسة ويهلك الإنسانية.

ومما يبرهن على حضور البرغسونية في عالم هددته سيادة المادية مقابل تقهقر الميتافيزيقا المرجحة للأخلاقية، كتيب لبرغسون معنون معنى الحرب الذي يتساءل فيه عن مصير القيم الإنسانية الحقة، إلى جانب التصاعد الرهيب للآلية. ويورد توضيحا لمعنى التقدم الحقيقي وفي النهاية يعرب عن ثقته في انتصار القيم الروحانية. وذلك بدعوته إلى مزاوجة الميتافيزيقا بالعلم والانتباه إلى القيم الأخلاقية والبحث فيها لضمان أسبقية الروحانية على الآلية، وذلك في ثنائية الآلة والتصوف، مما يمكن الميتافيزيقا الواعية لغاياتها من توجيه العلم نحو ترجيح القيم الإنسانية الخالصة. وهكذا سيهتم القرن العشرون بالأخلاق بينما كان القرن التاسع عشر قرن العلم[5].

يصطلح برغسون على حالة التحالف بين الآلة والعلم، على حالة التعبير عن القيم بواسطة الغريزة بمصطلح (المغلق - CLOS -) وتأسس هذا المفهوم منذ البدايات الأولى التي إنبنت عيها الابستيمولوجيا البرغسونية لما استخدمت مفاهيم متقابلة الزمان والمكان الحرية والحتمية، الحدس والعقل، إنسانية مفتوحة وإنسانية مغلق.

وعند الانتقال إلى أطروحة الأخلاق – منبعا الأخلاق والدين – يستخدم برغسون مفهوم الانغلاق مقابل مفهوم الانفتاح ليجعلهما حالتين لنوعين من المجتمع، مجتمع تحركه غريزة حب البقاء وآخر يهتز بفعل الانجذاب نحو الحب وهذا الاختلاف هو توالد للمسألة الأساس لفلسفة الديمومة. الأنا السطحي يعبر عن ذاته بوسائل تحجب الحقيقة مقابل الأنا الباطني اللامعبر عنه.

لم يرد الزوج المنغلق والمنفتح ورود مفاجئ في كتاب منبعا الأخلاق والدين بل عمل برغسون منذ كتاب التطور الخلاق على تأسيس البنية النظرية التي تخول له التدليل على وجود المجتمع وعلى الصبغة الآلية للإنسانية في حالة المجتمع المغلق "فكانت الحياة الاجتماعية مثالا غامضا كامنا في الغريزة والعقل على السواء، فتراه يتحقق على أكمل صورة في خلية النحل أو قرية النمل من جهة وفي المجتمعات الإنسانية من جهة أخرى، فالمجتمع إنسانا كان أم حيوانا، إنما هو نظام لأنه ينطوي على اتساق وترتيب ويقتضي بوجه العموم خضوع العناصر بعضها لبعض، لأنه جملة من القواعد والقوانين، إما أن يحياها المجتمع من غير أن يشعر بها، وهذا شأن المجتمع الحيواني، وإما أن يحياها ويتمثلها، وهذا هو شأن المجتمع الإنساني"[6].

وهكذا يذهب برغسون إلى أن هناك تشابها كبيرا بين المجتمعات البشرية وحشود النمل والنحل، من جهة إحكام التنظيم وارتباط الأفراد فيما بينهم لأجل الاستمرار في البقاء. غير أن المجتمعات الإنسانية تعي غاياتها من التنظيم

وتعمل على إحكامه لأن العقل قدرة من الغريزة. ويسمي برغسون المجتمعات الإنسانية التي تعمل أكثر على تنظيم نفسها عن طريق الضغط والقسر بالمجتمعات المغلقة. ويستعمل برغسون في تحليله لتركيبة المجتمعات البشرية منهجا أقرب إلى مناهج علم النفس الاجتماعي ويوصله هذا المنهج إلى أن صورة العلاقة التي تربط أفراد المجتمعات البشرية تماثل كثيرا تلك العلاقات الضرورية التي تحكم النظام البيولوجي للجسم[7]. إن أحكاما بهذه القوة يعمل لكي يصبح الفرد وسيلة براغماتية في خدمة الأغراض الاجتماعية التي تختلف في نسقها عن الطبيعة المادية "حتى ليبدو لنا الخروج عن النظام الاجتماعي شيئا غير طبيعي ونعده ضربا من الشذوذ أو الاستثناء"[8]. لم تكن غاية برغسون من تحديد أوصاف المجتمع المغلق بوصفه مرحلة سابقة لنمط آخر من المجتمعات فقط ذلك أننا عند مقارنة المجتمع المغلق بالمجتمع المنفتح نجد أنه فرق بينهما في الطبيعة وليس في الدرجة ولا يعد الثاني مرحلة لاحقة بالأولى وإنما كانت أهداف مثل هذا التنظير هي تحقيق ما يلي:

أ) نقد علم الاجتماع الدوركايمي وهي مهمة معرفية خولت للفيلسوف الاندماج في الإشكاليات العلمية لعصره.

ب) تفسير طبيعة مجتمعات الآلة، ويعد المجتمع الغربي المعاصر نموذجا لذلك حيث الاحتكام إلى المصلحة المادية، وحيث مفهوم الإنسانية قائم على التحديد البراغماتي إذ تتمثل وظيفة القيم الأخلاقية في المجتمع المغلق في المحافظة على تركيبة المجتمع واستمرار وجوده، وهنا يكشف برغسون عن الصبغة النفعية لمثل هذه القيم ويجعلها نتاج المصلحة الاجتماعية. وذلك أن المجتمع المغلق مستعد في كل لحظة لأجل هتك القيم الإنسانية وهذا في سبيل البقاء، فتتغير ماهية القيم المنظمة لهذا النموذج من المجتمع بمجرد تغير اتجاه المصلحة الاجتماعية، فيقود الجندي – مثلا – عملية قتل الإنسانية باسم القيم الإنسانية وهكذا قالت ساحرات مكبث شكسبير، الحمق هو العدل، والعدل هو الحمق.

٥- الانفتاح والتحرر من المصلحة:

المنفتح مقابل للمنغلق وهو تجل للديمومة في المستوى الاجتماعي لتكون تجربة فردية مميزة تقدم للمجتمع تجربة الانجذاب نحو النداء المعبأ بالقيم الروحانية. وهكذا نشهد تغيرا جذريا في رؤية الفرد للقيم بين المجتمعات المغلقة والمجتمعات المنفتحة، ففي المجتمع المنفتح يتملص الفرد من الانصياع والابتذال الناتج عن الغريزة الاجتماعية ويتطلع إلى نداء الحياة الصاعدة. وهذا التطلع يولد مزيدا في قوة حدسية ذات طبيعة انفعالية، يتغير على إثرها المجتمع، فبواسطة النداء الذي يصدره إلى الفرد تنقلب حالة النفس من الخضوع للعادة الاجتماعية المكرسة للضغط والعماء القيمي إلى الانجذاب نحو النداء. إن عملية الانجذاب هي ضرب من الانفعال يماثل إلى حد بعيد الانفعال الجمالي الذي يتركه الأثر الفني في النفس، فيتم التفاعل معه بواسطة حرية باطنية ليشكلان وحدة "فالنصف الآخر من الأخلاق الذي يعبر عن حالة عاطفية لا يخضع فيها المرء لضغط بل لجذب"[9]. وهنا يبدأ تغير القيم من قيم مغلقة يسعى المجتمع بواسطتها إلى المحافظة على كيانه إلى قيم مفتوحة هي جاذبية للقيم الروحانية التي يلقنها الفرد الممتاز للمجتمع.

ويدعونا هذا النداء إلى تجاوز الحدود الضيقة للواجبات الاجتماعية والانجذاب نحو الأخلاق الإنسانية ونحن هنا بإزاء نموذج جديد من القيم الأخلاقية لا تشبه الأخلاق المغلقة لأنها تتجه نحو العمل لأجل الإنسانية بوصفها عاطفة سامية ومثلها الأعلى هو الحب كما ورد في الإنجيل.

ولا تستمد الأخلاق المفتوحة من ضغط المجتمع بل تقوم على عمل عظماء الإنسانية من أبطال وفلاسفة وأنبياء ومصلحين وهم كمال الجنس البشري، إذ يبرز فيهم التطور الحقيقي المكمل للتطور العضوي وهم بذلك دعاة الأخلاق الإنسانية التي جوهرها حب وإيثار. ويبقون رموزا حية للقيم الروحانية في كل زمان ومكان. وهكذا تتحدد أخلاق القدوة عند برغسون التي لاتستتب بسيطرة قواعد أخلاقية ثابتة وملزمة توجه السلوك، وإنما بوصفها سيرة مترعة بالحب ينجذب نحوها المجتمع.

إن هؤلاء الأبطال الذين تبدو مواعظهم في سلوك الأفراد لتجذبهم نحو الأمام هم أدوات الوثبة الحيوية أوجدتهم لتحقيق التطور الروحاني للإنسانية. ويكون ذلك بخلق مجتمع مفتوح يقوم على أخلاق ديناميكية حركية كلها نزوع نحو المستقبل لإبداع قيم الحياة المتطورة فنحن هنا أمام أخلاق تنتشر عن طريق محاكاة الأفراد لنموذج فردي ينفعلون به فينجذبون نحوه، ويؤثر البطل على الإرادة تأثيرا مباشرا ولا يخاطب العقل بل الحساسية، فلم يعد بذلك الأنا منساقا بل منجذبا اتجاه نداء البطل الذي يستطيع توسيع دائرة القيم لتشمل الإنسانية جمعاء، كما أنه لا يقنعنا بالحجة والاستدلال بل بالقدوة.

أ- المجتمع المنفتح المجتمع البديل:

هكذا ينقلنا المجتمع المفتوح بتحديداته البرغسونية صوب زمان سحيق هو زمان الكرازة المسيحية، عندما كان المسيح يكرز بالبشارة في الجليل ويعد بالخلاص للبشر الخطائين وهو إلاه ابن إلاه. إنها التجربة الأولى المعبأة بالجذوة الروحانية الأولى التي جعلت أفئدة الحواريين تهوي نحو هذه التجربة وتنجذب إليها. لماذا لا نعيد التجربة ونتملص من الآلية ونعود إلى بساطة التجربة العميقة لنحيا الروحانية المخلصة من مأزق الزوج الآلة المصلحة التي تحاصر العودة إلى الإنسانية كما وصفتها البشارة المسيحية؟

على الرغم من البداية الفلسفية للابستيمولوجيا البرغسونية واعتمادها على المفهوم الوضعي في تثبيت نتائجها المعرفية إلا أننا نلاحظ منذ البدء أن حقيقة الديمومة بمواصفاتها الكيفية تحاكي في الماهية التجربة الدينية في عمقها الإيماني حيث يغيب العقل ويبقى الإيمان هو الدليل للحضور الرباني. ولقد واصلت الفلسفة البرغسونية عبر أطروحاتها المتراتبة على حمل تجربة الديمومة بمواصفاتها الابستيمولوجية إلى أن غدت تجربة دينية تدلل على وجود الإله في إطار الدين المتحرك وتدعو إلى مجتمع يترقى نحو هذا الإله.

إن فلسفة الديمومة هي عودة لانصهار الزماني والروحاني مما يقدم مشروعية العودة إلى الدين ليكون حلا لمجتمع آخر بديل للمجتمع الحاضر الذي يسير وفق الآلية. وهي الحقيقة التي صرح بها القسم الثاني من كتاب منبعا الأخلاق والدين، فبفعل الحدس والعاطفة الخلاقة المحايثة له، سيتمكن الإنسان الصانع من أن يتجاوز هذا

الظرف متطورا اتجاه إنسان متدين[10] ويكون عضو فعال في المجتمع المفتوح، حيث يكون الدين صورة كاملة لإنسانية تتطور في بوتقة الروحانية. وثمة يجيب برغسون عن العلاقة بين الدين والحياة إذ يغدو الفرد في المنظومة الجديدة محاكيا للقيم التي يقدمها نداء الحياة الصاعدة. وقد صرح برغسون في منبعا الأخلاق والدين بأن الدين الذي يعبر عن مضمون الدين المتحرك هو دين بني إسرائيل مدمجا فيه المسيحية، وهو الدين الذي اختاره برغسون كصورة مثلى لتجلي الحياة الصاعدة، إذ أن المسيحية تمثل قمة الذوبان والاتحاد المطلق عن طريق فعل التصوف، لذلك فقد أعاد برغسون مصداقية وجودها في حياة الأفراد. ولقد رأى برغسون أن أزمة العالم المعاصر قد تولدت من الفصل التعسفي بين الزماني والروحاني. فالصيغة الآلية التي اصطبغ بها المجتمع الغربي المعاصر تقر بنضوب معين زماني وفقدانه المصداقية الإنسانية لأنه لا يقر إلا بحاضر الإنسان وبانتمائه المادي، ومن ثم فهو يلغي جزءا هاما من حياته، وهو الجزء الذي لا يتدخل فيه العقل والذي ينتمي إلى نظام الوجدان والذي يمثل في حقيقة الأمر مركزا للكون لأنه محركها والفاعل الحقيقي فيها وهو ميدان القيم الروحانية. وعمل التطور بالمفهوم البرغسوني على تهيئة الأفراد بواسطة الروحانية، بحيث يكون بإمكانهم الحفاظ على الحرية والتقدم وهنا يكون التطور طريقا موصلا إلى النجاح.

وهكذا تكون الفلسفة البرغسونية فلسفة للطمأنينة إذ تضع الإنسانية في أعلى مراتب الوجود – إنسانية مسيحية – وتدعو إلى الحب والإيمان في إطار ملكوت اللّه، ومن ثم تسعى إلى أن تحل أزمة العالم المعاصر حلا سلميا يقوم على الحب والتعاطف كما عبر عن ذلك مضمون المجتمع المفتوح. وقد عمل برغسون على تحقيق هذه الفكرة أثناء الحرب العالمية الأولى محاولا تجسيدها في العلاقات الدولية[11]. وربما كانت محاولة "عصبة الأمم" التي وضع قواعدها الرئيس الأمريكي ولسن، محاولة سياسية أرادت أن تجمع المجتمع الإنساني تحت مفهوم السلام والانفتاح، علما بأنه كانت اتصالات ديبلوماسية بين فرنسا والرئيس الأمريكي ولسن كان من بين هؤلاء الذين أنجزوا هذه الاتصالات هنري برغسون.

ولقد قدم مفهوم المجتمع المفتوح حلا لمشكلة التعارض بين الديموقراطية والمسيحية، فتغدوا الإشكالية السياسية محلولة على مستوى الذات التي تنجذب نحو القيم الإنسانية كمحبة وهنا تتطابق صورة المجتمع المفتوح ومضمون ملكوت اللّه في الديانات المسيحية.

وانطلاقا من الخصائص التي حددها برغسون للمجتمع المفتوح، فإنه لا يبتعد – المجتمع المفتوح – كثيرا عن تصور العالم العقلي الأفلوطيني الذي تتم فيه الحياة بحالات من العشق تتوق فيه الكائنات إلى الأول صادرة عنه وتستمد كمالها منه وأبلغ صورة لهذا النموذج هي ملكوت الإله الذي دعت إليه المسيحية المنحدرة من اليهودية.

ب- المسيح مخلصا إسرائيليا:

يعد النداء في فلسفة برغسون حدا فاصلا بين المغلق والمنفتح، وبين الساكن والمتحرك. والنداء هو مدار التغير والاهتداء، فهو صادر عن فرد ميزته الاتصاف بأوصاف متفردة أهمها أنه يحيا تجربة الامتلاء لذلك فإن هذا النداء لا يتحقق بواسطة العدم بل بالصيرورة الممتلئة التي

تقتضي التغير بالقدوة وبالدعوة إلى المحبة والمسيح هو الذي لديه هذه الأوصاف.

ويعتبر النداء الموجه إلى البشرية النقطة الجوهرية في التغير القيمي الذي جاء به كتاب منبعا الأخلاق والدين وسيتجلى هذا التغير القيمي في التحول النوعي الذي يختلف فيه المجتمع عن طبيعته الأولى اختلافا جذريا، إذ يتخلص من الانغلاق ويمضي برؤية جديدة تمكنه من القيم الإنسانية المتطورة والقادرة على قيادته إلى أعلى مراتب الإنسانية. وهنا تكمن فكرة التقدم الروحاني، لهذا يحظى النداء في الأطروحة الأخلاقية بقيمة كبيرة، فهو يمثل صعود تيار الحياة، ومن ثم يمثل تطور الإنسانية الروحاني، كما يعد الفعل الكامل لإنسانية متفوقة تستمد تفوقها من تجربة الاتصال والاتحاد بالمبدإ الخالق. حيث تتلقى النداء، والشاهد على ذلك أن النداء هو صورة لعلاقة الإله بالإنسان ودعوة منه إليه لمسايرة القيم الروحانية. فبظهور هذا النداء تتبدل رؤية الأفراد للأخلاق المستتبة والدين المتحكم. وتتسع آفاق الإنسانية إلى ما لا نهاية، لأن النداء يقظة للحرية وارتفاع عن الطبيعة ومن ثم انجذاب إلى القيم التي ينادي بها بواسطة منهج التحرر، وهكذا تكون القيم حالة إبداع لا تتحدد بصورة نهائية إنما الشيء المحدد هو الصيغة الروحانية للنداء.

إن النداء علامة من علامات تفوق الإنسان وتجلى في المسيح كشخصية فذة بلغ فيها التطور مبلغه بوصفه تطورا روحانيا وهو أيضا علامة للبطولة، وهو الطريق الذي اختارته الحياة لتكملة التطور العضوي بالتطور الروحاني "فالإنسان الذي يتكئ دائما على مجموع ماضيه حتى يقوى فعله في المستقبل هو ظفر الحياة الأكبر ولكن الإنسان الذي يكون فعله القوي في ذاته قادرا على أن يقوي كذلك فعل سائر الناس. وأن يشعل، وهو السمح الكريم مواقد كرم وسماحة ذلك الإنسان هو الإنسان الخالق إلى أعظم حد"[12].

5- تجربة الخلاص المسيحية ووحدة اليهودية والكاثوليكية:

وهكذا تقدم البرغسونية بمفهوم المجتمع المفتوح حلا للأزمات الإنسانية المعاصرة، وذلك بالذوبان المشترك في عاطفة الحب، دون الخضوع للأوامر والنواهي والقواعد الأخلاقية القسرية. ويعتقد برغسون أن أفضل نموذج لهذا الحب تمثل في المحبة كأرقى عاطفة يعيشها البشر. ففي المسيحية يمكن الكشف على المفهوم الحقيقي للمحبة والتسامح. وبذلك تكون الأخلاق البرغسونية تابعة للدين أو هي مقدمة له، فتكون الأخلاق المثلى هي صميم الدين المفتوح لأن المسيح سيكون رسولا للأخلاق والدين معا.

يوضح برغسون عبر التطور التدريجي لفلسفة الديمومة وصولا إلى أطروحة منبعا الأخلاق والدين، للعالم المسيحي التطابق الكامل بين اليهودية والديانة المسيحية محاولا بواسطة فكرة التصوف إيجاد صيغة مثلى للتوفيق بين الفكرة اليهودية والفكرة المسيحية لأنهما يمثلان تجليا حقيقيا للتطور الروحاني المبدع ومن ثم يمكن وضعهما في إطار وحدة شاملة تسمى دين الإنسانية وهنا ينبه برغسون العالم المسيحي للدور الذي قام به أنبياء بني إسرائيل والشعب اليهودي في تقديم دين التوحيد للعالم ككل. وهكذا يدعو فيلسوف الديمومة من وراء سطور كتابه إلى

احتضان الفكرة اليهودية ومحاولة تجاوز تلك النظرة العقائدية الضيقة التي نظر بها المسيحيون إلى اليهود طول تشردهم في العالم، فالفضل يعود إلى بني إسرائيل في تقديم البديل الأمثل للعالم. فالفصل في مسألة إسرائيل والتطور الروحاني للمسيحية مرتبطان إذن[13].

إنه الخطاب الذي أراد برغسون أن يوحي به إلى الفئات الأرستقراطية الأوروبية، لأن العاطفة السامية التي قد تخلص الإنسانية المعاصرة المحصورة في آلية هدامة هي عاطفة تتطابق والعاطفة التي استجلت الدين الحقيقي هو دين بني إسرائيل. وعن طريق فكرة المجتمع المفتوح الذي تذوب فيه الحدود العقائدية الضيقة، يطلب برغسون من الغرب تبني الفكرة اليهودية التي بإمكانها تقديم البديل الروحاني القادر على تخليص الإنسانية من مأزق الآلة بالعودة إلى وحدة الزماني والروحاني في صيغتها اليهودية ما دامت تقود إلى الكاثوليكية وهنا وحدة التاريخ العقدي بين اليهود والغرب والمطالبة بالصياغة الحضارية الواحدة بينهما.

الهوامش

1 - Madeleine Barthelemy - Madaule: Bergson, éditions du seuil, paris, p 19.

2 - Marie Cariou: Bergson et le fait Mystique, Aubier Montaigne 1976, p 86.

3 - Henri gouhier: Bergson et le christ des Evangiles, les grandes religieuses, librairie Atheme Fayard, paris 1961 p 163.

4 - Hajlamar Sundèn: La théorie Bergsonienne de la religion P.U.F, 1947, p230.

5 - Henri Bergson: La signification de la guerre, Bloud et Gay éditeur, paris, 1917, p 35.

6 - هنري برغسون: منبعا الأخلاق والدين، ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدائم، الهيئة العامة للنشر القاهرة 1971، ص34.

7 - المصدر نفسه، ص98.

8 - المصدر نفسه، ص117.

9 - المصدر نفسه، ص37.

10 - François Mayer: pour connaitre la pensée de Bergson Flammarion, paris, p 47.

11 - Bergson Henri: Ecrits et paroles, Textes rassemblées par Mossé - Bastide, P.U.F 1957, T3, p460.

12 - هنري برغسون: الطاقة الوحية، ترجمة سامي الدروبي، دار الفكر العربي الطبعة الأولى 1963، ص21.

13 - Robert Joseph Cohen, / Morale individualiste ou Morale sociale, les éditions de la colonne, vendôme, p.u II^{e} p 14.